ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص281-304

الطرق التجارية والعلاقات الاقتصادية بين تونس والسودان الغربي خلال عهد الدولة الحفصية 1228-1574م

Trade Roads and Economic Relations between Tunisia and Western Sudan During the Hafsi State Period 1228.1574

عبد القادر بن محجوبة*
جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)
Mohamed.taha@univ-adrar.edu.dz

حمادي بن موسى
جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)
Ham.benmoussa@univ-adrar.edu.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/14
تاريخ القبول:
2021/06/06

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الدولة الحفصية
- ✓ السودان الغربي
- ✓ التجارة

الملخص:

يعالج هذا المقال العلاقات الاقتصادية بين تونس والسودان الغربي خلال عهد الحفصيين بين الفترة الممتدة 1228 و1574م، والذي نحاول من خلاله السعي إلى إظهار متانة وعمق وقدم العلاقات الاقتصادية بين شمال إفريقيا وغربها زمن الدولة الحفصية، كما نعرج على أبرز المحطات التجارية في كلا الجانبين ووزنها الاقتصادي ذلك الوقت، فاليوم تبرز الأهمية الحقيقية في إحياء هذه الطرق والروابط بين دول شمال إفريقيا ودول غربها في ظل عالم تحكمه التكتلات السياسية والاقتصادية. يعتبر الإسلام طرفا في تقريب الأخوة والتعاون بين الجهتين، وساعد الحواضر الإسلامية في إفريقيا سواء في غربها أو شمالها على اللعب دورا محوريا في تبادل السلع وكذلك نقل مختلف المؤثرات الفكرية والسياسية بين الجانبين، وسجل التاريخ أن أزهى فترات الرخاء الاقتصادي والسياسي التي جمعت الطرفين كانت بين القرنيين 13 و16ميلادي، وبعد هذا القرن ساد الركود في كلا الجهتين نتيجة دخول لاعبين جدد على القارة الإفريقية كان لهم الدور في رسم معالمها لقرون عديدة.

Article info

Received:
14/05/2021
Accepted:
06/06/2021

Key words:
- ✓ Hafsid state
- ✓ Western Sudan.
- ✓ Trade

Abstract:

This article deals with the economic relations between Tunisia and Western Sudan during the Hafsid era between the period 1228 and 1574 CE, through which we are trying to show the strength, depth and old economic relations between North and West Africa at the time of the Hafsid state. We also see the most prominent commercial stations on both sides and their economic weight at that time. Today, the real importance of reviving these roads and links between North African and Western countries is evident in a world ruled by political and economic blocs. Islam is considered a party in bringing unity and cooperation between the two sides, and helped the Islamic metropolises in Africa, whether in its west or north, to play a central role in exchanging goods, as well as transferring the various intellectual and political influences between the two sides. History records that the brightest periods of economic and political prosperity that brought the two parties together were between the 13th and 16th centuries AD. After this century, stagnation prevailed on both sides because of the entry of new players on the African continent who would have played a role in shaping its features for the coming centuries

*المؤلف المرسل

مقدمة

مع دخول الإسلام إلى الجزء الشمالي من إفريقيا عن طريق العرب الفاتحين أخذ يتسرب إتباعا إلى ما وراء الصحراء الكبرى وأعماق بلاد السودان فاتحا جسرا تواصليا بين ضفتيها الشمالية والغربية، لتتعدد وتتنوع العلاقات وتتوطد أكثر مع مرور الزمن، وقد حملت الدول التي تعاقبت على حكم منطقة المغرب الإسلامي على عاتقها تطوير العلاقات في المجالات المختلفة مع بلاد السودان، وبالرغم من أن الجغرافيين العرب لم يستخدموا مصطلح السودان تاريخيا إلا بعد احتكاكهم بالشعوب سوداء البشرة تمييزا لهم عن الشعوب الأخرى ذات اللون الأبيض (هذه التسمية لم تأخذ البعد العنصري بالمناسبة)، لكن ذلك لم يمنعهم من تقسيم بلاد السودان إلى دول وممالك وأقاليم تحكمها نفس الخصائص العرقية والطبيعية، بالرغم من أن التقسيم الجهوي للسودان إلى شرقي ووسطي وغربي لم يظهر فعليا إلا حديثا مع الحملات الاستعمارية الأوروبية للمنطقة، وتعتبر المدن الحفصية والحواضر السودانية الغربية باختلاف أماكن تواجدها وتوزيعها الجغرافي على مر القرون مثالا قيما في التعاون الاقتصادي والتبادل التجاري والذي يقرب لنا صورة وطبيعة العلاقات التي كانت تجمع الشعوب ذلك الوقت، **فما طبيعة العلاقات الاقتصادية بين الدولة الحفصية والسودان الغربي بين القرنين13 و16ميلادي؟** وخلق التقارب الحفصي مع السودان الغربي مسالكا تشق الصحراء وتسيرها القوافل التجارية لتنقل كل مختلف السلع الرائجة آنذاك، ونظرا لكبر وشساعة كلا الرقعتين الجغرافيتين الشمالية والغربية لإفريقيا وصعوبة دراستها مجتمعة، سنقوم بإعطاء سرد دقيق ووصف جامع لهذا الموضوع التاريخي من خلال معالجة البعدين الاقتصادي والتجاري الذي كان يجمع الدولة الحفصية والسودان الغربي.

1. التجارة الصحراوية

إن المتتبع لتاريخ التجارة الصحراوية يلاحظ أنها لم تكن معروفة بالمعنى الاقتصادي إلا بعد سنة3000 ق.م، وهو التاريخ الذي حدده العلماء ببداية تحول الصحراء إلى الحالة المعروفة عليها الآن، فقبل هذا التاريخ كانت تنقلات السكان تتم بصفة عادية خلالها، وبعد الجفاف الكبير الذي لحقها منذ التاريخ المذكور نلاحظ انسحاب السكان الحاميون إلى مناطق تجمعات السكانية في شمال الصحراء والى نهر النيل الأسفل (نهر النيجر) واتجه الزوج نحو المناطق الجنوبية للصحراء، وبمنطق أن الحاميين كانوا رعاة غنم فقد سيطروا على المناطق الصحراوية بحكم تنقلاتهم الشتوية في الصحراء والصيفية في الشمال بحثا عن الموارد النباتية، وقد استخدموا في تحركاتهم الدائمة أنواعا من الثيران ذات القرون الطويلة والخيول التي لم تدخل إلى إفريقيا إلا سنة 1700 (ق.م) عن طريق آسيا[1]، وقام شعب الجرامنتس الذي سكن الصحراء الليبية منذ القرن8 (ق.م) بتجارة العبيد فطاردة الزنوج الإثيوبيين بعربات تجرها أربعة خيول وجلبهم لأسواق النخاسة، ولعل سمة التجارة كانت أبرز ما يميزهم فقد دفعتهم إلى أن يصبحوا مهرة في الملاحة الصحراوية، كما أنهم قاموا ببناء الحصون على طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء الليبية وضواحيها ولعبوا دور الوسيط الذي ينقل سلع الصادرة من جنوب صحراء إفريقيا إلى شمالها[2]، وتطورت التجارة على أيدي القرطاجيين كذلك، فمنذ وصولهم إلى السواحل

الإفريقية الشمالية أي منذ قرابة ثمانية قرون قبل الميلاد، كما أعطاها الرومان مزيدا من القوة في أعقاب توسعاتهم في الشمال الإفريقي في القرون الأولى الميلادية[3]، وما زاد تجارة القوافل بين الشمال والجنوب زخما هو دخول الجمل إلى مجال النقل التجاري في القرن الرابع الميلادي، وهو ضرورة ملحة في بيئة مقفرة شحيحة المياه نظرا لتحمله العطش الشديد وإمكانية سيره في البيئة الصحراوية ذات التربة الرملية[4]، لكن من الملاحظ أن التجارة تقلصت أو ربما توقفت تماما مع انهيار الحكم الروماني في القرن الرابع الميلادي، ولم تدب في التجارة الصحراوية الحياة إلا بعد سيطرة البيزنطيين على شمال إفريقيا في الفترة الممتدة بين 533 و535 ميلادي[5].

ومع ظهور العرب الفاتحين في القرن السابع الميلادي حدث نهوض هائل في التجارة عبر الصحراء الكبرى وتعتبر الفترة ما بين القرن13 و16 ميلادي هي ازهي فترات التجارة بين شمال إفريقيا وغربها، وكان وراء هذا الازدهار وجود أنظمة حكم مستقرة في كلا المنطقتين، وانتهى هذا الانتعاش التجاري مطلع القرن 17ميلادي[6]، وقد شكل الإسلام عامل توحيد للمجتمعات الصحراوية وساهم في انتشار الثقافة العربية والإسلامية، كما أدى وصول القبائل العربية إلى شمال وغرب الصحراء إلى تطور وتوسع شبكات القوافل التجارية كما زادت الأهمية الاقتصادية للبدو ومربي الجمال[7]، وقد ظهرت الدولة الحفصية بمظهر لائق بين الدول الإسلامية التي كانت في العصر الوسيط، بل وممتاز في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى نجد أن نفوذها وصل إلى أبعد من رقعتها الجغرافية[8]، ولا بأس في منظورنا الشخصي أن نشير إلى العلاقات التي جمعت الدولة الحفصية مع السودان الأوسط خلال حكم مملكة كانم، وبالرغم من أن هذه الإشارة خارج موضوع بحثنا لكن نرى أن استحضار بعض هذه الجوانب سيوضح لنا أكثر الخطوط العريضة التي جمعت الدولة الحفصية مع الممالك الإسلامية التي حكمت إفريقيا جنوب الصحراء، وقد دخلت مملكة كانم المسلمة في علاقات سياسية وتجارية مع الحفصيين، ومن خلال كلام ابن خلدون فإن العديد من الهدايا والسفارات جمعت الطرفين ومنها الهدية التي أرسلها ملك كانم إلى أبي عبد الله المستنصر الحفصي عام1257م وذكر ابن خلدون هذه الهدية بقوله: "**وأتحف ملك المغرب لعهد السلطان أبى سالم ابن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة اثنين وستين وسبعمائة وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة تحدث الناس بما اجتمع فيه من متفرق الحلى وشبه في جثمانه ونعتوه دهرا**" [9]. هذا فيما يخص مملكة كانم، أما في الجهة المقابلة حيث مملكة مالي فوقتها كان حكامها منشغلين عن الحفصيين وغيرهم بترتيب أمور دولتهم، ولهذا لم يكن للحفصيين علاقات سياسية مع مالي، وبعد انتهاء القرن 13ميلادي بدا نجم مملكة مالي يسطع ويزدهر قابله ضعف الحفصيين منذ وفاة المستنصر سنة 1277م[10]، لكن مرحلة الضعف تلك لم تدم طويلا إذ عاودت الدولة الحفصية في الظهور في السنوات الموالية.

2. العراقيل التي تواجه القوافل التجارية

إن مرور القوافل التجارية وسط الصحراء أمرا محفوفا بالمخاطر والعقبات، لأن السير في وسط الصحراء لا يعد أمرا هينا وبسيطا، بل هو بالغ الصعوبة نظرا لشساعة المساحة الصحراوية وما يميزها من وعورة المسلك

وقسوة المناخ وحتى المشاكل القبلية تجعل سير القوافل أكثر تعقيدا، ويمكننا تقسيم هذه المخاطر إلى قسمين رئيسيين:

1.2. الظروف الطبيعية

تعتبر الظروف الطبيعية من أهم العناصر المؤثرة على التجارة الصحراوية ونذكر منها على سبيل المثال:

الرياح والتعرض للعطش فهناك رياح القبلي التي تعمل على جفاف المياه، كما توجد رياح يطلق عليها الريح الأحمر نسبة إلى الغبار التي تصطحبه[11]، وفي هذا الصدد نوه المؤرخ البكري إلى مشكلة الرياح التي كانت تقضي على قوافل بأكملها، مما تضطر هذه القوافل أحيان إلى تغيير مساراتها وأحيانا أخرى تستبدلها وتبحث عن طرق جديدة[12]، كما توجد بعض الآبار والتي حفرها أصحابها خصيصا للعابرين للصحراء وخوفا من أن يطمسها الرمل تسور من الداخل بعظام الإبل وتغطى بجلودها، لكن في الصيف تهب رياح تحمل معها الرمال فتقوم بطمس الآبار وعند وصول الناس إلى هذه الأماكن لا يستطيعون أحيانا الوصول إليها فيضطرون إلى بقر بطون جمالهم كي يشربوا ماءها لان الجمل يأخذ كفايته من الماء لمدة 12 أو 15يوما، واعتاد الناس على هذه الطريقة حتى يصلوا إلى وجهتهم التي فيها الماء هذا إن بقوا على قيد الحياة، ولولا هذه الطريقة لهلك الكثير منهم ولكان السفر شبه مستحيل في الصحراء[13].

التيهان في الصحراء حيث تعتبر الكثبان الرملية من أبرز الصعوبات الطبيعية المسببة لتيهان القافلة، وذلك لصعوبة السير عليها لمسافات طويلة، لأنها تنهك الإبل الحاملة للمتاع، كما أن الرياح الحاملة للرمال تتسبب في ضياع معالم الطريق فتؤدي إلى تيهان القافلة في الصحراء[14].

التعرض للحشرات والزواحف فقد أخبرنا الإدريسي في هذا الصدد أن الصحراء يكثر فيها الأفاعي والعقارب على تنوع أشكالها وأصنافها وكثرة عددها[15]، وتعد الحشرات والزواحف من الأخطار التي تواجه المسافرين في الصحراء فهي وسط طبيعي ملائم للعيش بها، ويتعرض المسافر للدغ العقارب أكثر من الأفاعي لأنها تسكن الأماكن المهجورة والغير مهجورة عكس الأفاعي التي تسكن الأماكن المعزولة فقط، لكن المعلومات التي تناقلها المؤرخون والتي وصلت إلينا أن اخطر العقارب توجد في محطات التجارة الواقعة على الضفة الشمالية للصحراء الكبرى[16]، ويعد خطر الأفاعي واضحا وبارزا، فشكل عائقا كبيرا أمام المسافرين ولا يقتصر خطرها على الإنسان وحده بل تعداه إلى الإبل التي غالبا ما تهلك بسببها، والأفاعي الصحراوية أنواع وأشكال فبرعت الأقوام والمجتمعات الإفريقية في ابتكار الطرق العلاجية لسمومها وتجنب لدغاتها، فاقتنوا البخور والعقاقير والأحجار الكريمة لطردها وعلاج لدغاتها[17].

بعد المسافة الذي لعب دورا كبيرا في تأخر القافلة وتعرضها للأخطار المصاحبة لها طوال الرحلة أي أن شساعة الصحراء جعلت القافلة تعبرها أحيانا على نحو شهرين متتابعين، تكون فيها سرعة الجمل ما بين 3

و3.5كلم/سا، لتقطع بذلك في اليوم 35كلم، أما المهري[18] فيقطع حوالي 120كلم في اليوم هذا ما يجعله يسبق القافلة إلى ارض السودان، والمعلوم أن المسافة بين السودان الغربي والدولة الحفصية تعد بآلاف كيلومترات[19].

2.2. الأخطار البشرية

وهي مشكل رئيس لا يقل خطرا عن الظروف الصحراوية القاسية آنفة الذكر ولطالما كانت عقبة أمام سير القوافل التجارية وأبرزها:

قطاع الطرق حيث سجل التاريخ الصحراوي الكثير من الاعتداءات على القوافل التجارية وقد حمل قبائل الطوارق[20]، والبدو الرحل على عاتقهم هذه المهمة في فترات مختلفة ولظروف خاصة، فشكل قطاع الطرق عائقا كبيرا للقوافل التجارية، وبما أن معظم هذه المسافة عبارة عن كثبان رملية واسعة، غالبا ما تشكل مؤوى للمعتدين الذين ينظمون غارات مفاجئة على القوافل، وتنهب بذلك ثرواتها وغالبا ما يحدث ذلك أثناء العودة من بلاد السودان وهي محملة بالذهب[21].

استهواء الشياطين للمسافر المنفرد فالأخطار التي تحدق بالمسافرين عبر الصحاري لم تعد متعلقة بالجانب المادي فقط بل تجاوزته إلى الأخطار المتعلقة بالجانب الروحي والمعتقدات، وعلى الرغم أن المسافر ملم بالأخطار التي تنتظره في الصحاري إلا أن الصحراء ظلت تحتفظ بهيبة عند قاطعيها، كل هذا أدى إلى جهل البعض من الناس بالصحراء ولم تكن معروفة بما يكفي لدى الذين يقطنون الواحات القريبة لها في الجهة الشمالية منها[22].

الضرائب الباهظة وهي من الأمور المهمة التي يقوم بها تجار القوافل بحيث يلجئون لدفع الإتاوات اللازمة في العديد من المراكز التجارية التي يمرون بها أو التي يبيعون فيها بضائعهم، وكانت عادة ما تدفع كسلع تحتاجها تلك المناطق، وقد برزت قبائل الطوارق في هذا المجال بحيث يحصلون على مقابل من اجل مرور القوافل التجارية، وتكون الضرائب قاسية في اغلب الأحيان على أصحاب القوافل[23]، واعتمد الطوارق في اقتصادهم ومعيشتهم أسلوب السطو والسلب والنهب على القبائل والقوافل التجارية، ويقومون في سنوات الجفاف بغزو المدن المجاورة كما فعلوا لمدينة تنبكتو وولاتة خلال حكم مملكة مالي في القرن الثالث عشر ميلادي فنهبوها وسيطروا على معظم مناطق شمال مالي[24]، وأعادوا الكرة في القرن الثامن عشر بتدمير الطوارق تنبكتو بعد غزو المغاربة لها مسبقا، وبحكم أن الطوارق يتوسطون الصحراء وهم عبارة عن همزة وصل بين الشمال والغرب الإفريقي سيطروا على طرق القوافل وكانوا يأخذون الإتاوات عنها مقابل الحماية أو لقيادتها وإما تتعرض هذه القوافل إلى السلب والنهب من طرفهم[25]، كما اشرنا سابقا.

غلاء التكاليف لكون المسافات بعيدة والقوافل التجارية لها مواسم معلومة، وحاجة بعض السلع إلى الكثير من الإبل لنقلها، ومحاولة التجار نقل أكبر كمية ممكنة من السلع، تجدهم يكترون الجمال لنقل البضائع وفي كثير من الأحيان تكلفة نقل السلع أكثر من ثمن السلعة بحد ذاتها، وقد تأخذ معظم أرباح التجار وفي بعض الأحيان تموت الدابة المكتراة فيضطر التاجر لدفع تعويض إلى صاحبها فتزيد من مصاعب التاجر المالية[26].

3. المراكز التجارية في كل من السودان الغربي والدولة الحفصية

إن الموقع الاستراتيجي الممتاز جعل الدولة الحفصية همزة وصل بين المشرق والغرب، وساعدها على إقامة علاقات اقتصادية مع كثير من الدول المجاورة لها، وكان اعتمادها على التجارة يعتمد على ثلاثة طرق اثنان منها بري والآخر بحري، فالطريق الأول البري يأخذ اتجاه شمال جنوب والثاني بحري، والثالث يعتبر من الطرق العرضية التي تربط الحفصيين مع نظرائهم العرب، ونعود للطريق الأول والذي هو محور دراستنا، فهو يربط تونس بالسودان عامة، وكان الاتجار يتم بينهما بواسطة القوافل التجارية العابرة للصحراء[27]، التي بدورها كان لها زمان ومكان معلوم لسيرها، أما زمنيا يقول الإدريسي في هذا الصدد أن القافلة تنطلق في سيرها في فصل الخريف[28]، أما المخبرين الأوربيين يشيرون أن القافلة تجتاز الصحراء في فصل الشتاء، وعلى أي حال فالقافلة لا تعبر الصحراء في فصل الصيف ولا الربيع لتفادي مخاطر الصحراء الطبيعية أنفة الذكر، أما مكان الانطلاق هو دائما من مستودع أو ميناء أو المحطات صحراوية الكبرى التي هي عبارة عن مدن استقبلت البضائع والقوافل معا في اتجاه الشمال والجنوب[29]، وبالعودة إلى الطرق والمسارات فإن متتبعها، يلاحظ أن الطرق التجارية التي تربط بين السودان الغربي والشمال إفريقيا عامة تجد أغلبها واقعة في الجزء الغربي للشمال الإفريقي، كما أن الطرق هذه تتحكم فيها العوامل السياسية والطبيعية على حد سواء، وهناك مسارات وطرق في جهة الغرب تربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي أكثر من أي جهة أخرى، فهي أكثر استقرارا من الطرق التي في جهة الشرق والوسط التي كانت أكثر شدة من ناحية المخاطر التي تتعرض لها القوافل التي تطرقنا إليها سابقا[30]، ويعزى ذلك إلى مجموعة من التراكمات التاريخية كان أبرزها فتح المرابطين للمنطقة، ونشر الإسلام هناك والنزعة الدينية والتجارية لهؤلاء البربر، والإسلام كدين لعب دورا بارزا في تغيير المجتمع الإفريقي، فكانت دولة المرابطين هي السباقة في فتح الأسواق السودانية اتجاه الشمال، وبالإضافة إلى الأسباب السابقة هناك أسباب أخرى مكنت المرابطين من السيطرة الواسعة لقبائلها في الصحراء وتحكمها في الطرق التجارية ما بين القرنيين 9و11ميلاديين[31]، وتعتبر مدينة سجلماسة بوابة الطريق نحو السودان الغربي وهذا يعود إلى الطرق التي تربط هذه المدينة مع مختلف المدن المغربية شمالا والسودان الغربي جنوبا، وهناك عامل آخر زاد من أهمية الطريق الغربي متمثل في ظهور مناجم الملح والألماس في المدينة سابقة الذكر الذي قلل من معاناة تجارة الملح والمعادن النفيسة، كل هذا عزز من الارتباطات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين السودان الغربي والمغرب الأقصى[32]، لكن وبالرغم من وجود طرق ومسارات واصلة بين الدولة الحفصية والسودان الغربي إلى أنها ليست بذلك الحجم والزخم الكبير مثل ما هو موجود مع المغرب ولعل هذا ما يفسر العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفراء بين مملكة مالي و مراكش في القرن 14ميلادي[33]، وعلى العموم يمكن أن نرسم مسارات القوافل التجارية بين الحفصيين والسودان الغربي على النحو الآتي بعد تقسيم هذه الطرق على حسب انطلاق القوافل إلى ثلاث اتجاهات ضمن الحيز الجغرافي للدولة الحفصية وهي:

1.3. الطريق الشرقي

تنطلق خلاله القافلة من مدينة طرابلس الغرب وتقطع خلاله جبال نفوسة مرورا بغدامس ثم مدينة غات أو ما يعرف إجمالا بصحراء فزان مرورا بمنعطفات نهر النيجر[34]، وتتوجه خلاله إلى مدينة تادمكة ثم إلى مدينة غاو ثم إلى مدينة اودغست وبعدها تكمل القافلة رحلتها إلى باقي مدن السودان الغربي[35].

2.3. الطريق الغربي

في هذا الاتجاه تنطلق القوافل من الموانئ الجزائرية (سكيكدة أو بجاية) مرورا بقسنطينة ثم باتنة مرورا بسكرة ثم إلى ورجلان(ورقلة حاليا) وهذا الطريق له قيمة تجارية كبيرة وخاصة عند الحفصيين بسبب تجارة الذهب[36]، وفي أورجلان يتفرع بدوره إلى ثلاث مسارات أخرى: **الطريق الأول** يكمل مسيرته متجها إلى عمق الصحراء الجزائرية انطلاقا من ورجلان ثم امقيد والهوقار وصولا إلى مدينة تنبكتو بعدها تكمل القافلة الطريق إلى كل من مدينة ولاته وغاو وجني[37]، **الطريق الثاني** من نفس الاتجاه أي انطلاقا من اورجلان ثم إلى مدينة غدامس وتكمل القافلة طريقها إلى السودان الغربي مع الطريق العابر من الاتجاه الشرقي سالف الذكر، أما **الطريق الثالث** ضمن نفس الاتجاه يمر عبر اورجلان أيضا، مرورا بمنطقة توات ويكمل مسيرته إلى مدينة تنبكتو بعدها إلى باقي المراكز التجارية للسودان الغربي التي هي في نفس اتجاه هذه المدينة[38].

3.3. الطريق الوسطي

حيث يقع في وسط الاتجاهين السابقين وتنطلق الرحلة التجارية من عاصمة الحفصيين تونس أو مدينة القيروان مرورا ببلاد الجريد، وصولا إلى غدامس أو ورجلان وتكمل مسيرتها عبر الطريقين السابقين إلى السودان الغربي[39].

ومن الملاحظ هنا أن الطرق التجارية غير مستقرة الاتجاه، ويخضع سيرها على حسب الأخطار الطبيعية والبشرية التي تم التحدث عنها سابقا، وسنتطرق لاحقا بالتفصيل إلى أبرز هذه المسالك الواقعة في كلا الجهتين التي لعبت دورا بارزا ومحوريا في التجارة الصحراوية.

4. أهم المراكز التجارية الواقعة في الدولة الحفصية

1.4. القيروان

وهي من اعرق المدن في شمال إفريقيا أسست خلال القرن السابع ميلادي مع مجيء العرب الفاتحين واستمرت لقرون كعاصمة للحضارة العربية في إفريقيا، وتكلم عنها المؤرخ الكبير القزويني مصرحا: "... **مدينة عظيمة بإفريقية ، مصّرت في أيّام معاوية، وذلك انّه لمّا ولّي عقبة بن نافع القرشي افريقية ذهب إليها وفتحها وأسلم على يده كثير من البربر، فجمع عقبة أصحابه وقال : إن أهل افريقية قوم إذا غصبهم السيف أسلموا، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى دينهم، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا ، لكن رأيت أن أبني هاهنا مدينة يسكنها المسلمون...**" [40]، ومن بين المؤرخين الذين تناولا سيرتها نجد الحميري الذي أسهب في مدح المدينة وتاريخها العريق ومكانتها العالية بين المدن الحفصية في فترات تاريخية متعددة، حيث

تكلم في شأنها وقال: " **هي قاعدة البلاد الإفريقية وأم مدائنها، وكانت أعظم المدن المغرب نظرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، واربحها تجارة، وأكثرها جباية...**" [41]. وفي خضم كلام الحميري الموالي لما سبق ذكره نلاحظ انه يتأسفا على حال المدينة لما لحقها من ضرر وخراب مس أركانها جراء الغزاة الذين تعرضوا لها فلم تصبح تلك المدينة التجارية والتي كانت تعج بالحركة والحياة[42]، ومن القرن الخامس عشر حتى القرن السادس عشر ميلادي جاء ذكرها على لسان الحسن الوزان ومن كلامه يبدوا أن حالها لم يتغير كثيرا عن ما كانت عليه خلال القرن الماضي مصرحا بالقول: " **وتقع القيروان في برية رملية وخاوية حيث لا ينبت شجر ولا حب، فالقمح وكل منتجات الأرض الضرورية للحياة تجلب من الساحل... ويأتي العرب في الصيف ليقيموا حول المدينة، مما يضاعف ندرة الماء والقمح، لكن وجودهم يؤدي رغم ذلك إلى كثرة اللحم والتمور المجلوبة من موريتانيا التي تبعد عن القيروان بمسافة مائة وسبعين ميلا**" [43].

ومن خلال آراء المؤرخين يبدو أن المدينة قد تعرضت إلى حالة من الركود الحضاري الذي مسها في فترات زمنية مختلفة وعانت من ضعف هدد أركانها لكن ذلك لا يعني أنها غيبت تماما خلال العهد الحفصي، فقد برعت مدينة القيروان في الصناعات النسيجية وتطورت الصناعة فيها بصفة عامة خلال هذا العهد ولم يعد لصناعة النسيج ذلك الاحتقار التي كانت تعاني منه من طرف العامة بل بالعكس أصبحت من المهن التي تقتصر على أشراف الناس، كما عملت السلطة الحاكمة إلى مراعاة أحوال العمال ودعم قطاع النسيج في المدينة في بعض الفترات وخاصة في فترة الحج حيث كان يزود صناع القطن بكميات محدودة بغرض غزلها واستعمالها، وقد خصص في مدينة القيروان دار طرازة خاص بها أنتجت كل ما يتعلق بالخلفاء والحكام وسمي إحدى أبواب المدينة بباب الطراز، وباستقرار أصحاب المهن والتجار في الأسواق كانت لهم سوقا خاصة بقطاع النسيج يسمى سوق الغزل[44]، أما معدن الذهب فلا يمكن أن ننكر أن ذهب السودان الغربي كان له عظيم الفضل في ازدهار القيروان، فهذه المدينة أصبحت إحدى المحطات الرئيسية في نزول القوافل المتوجهة إلى السودان أو القادمة منه، فمن الضروري النزول فيها، وكذلك تطور المدينة من الناحية العمرانية مكنها من أن تصبح من أهم مدن إفريقية[45].

2.4. طرابلس

وجاء وصف موقعها على لسان الحميري منوهنا بمكانها الجغرافي قائلا: "**مدينة على شاطئ بحر الروم، عامرة كثيرة الخيرات والثمرات، لها سور منحوت من الصخر، وبساتين جليلة ورباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون**" [46]، ومن كلام المؤرخ يتضح شدة تحصين المدينة وهي من المدن الليبية الصخرية الواقعة على حافة البحر، وموقعها ومكانتها أهلها من أن تحتل التجارة مكانة هامة في مدينة طرابلس وساكانها، فموقعها الاستراتيجي حدد لها دورا تجاريا، مما جعل أهلها وأهل المدن المجاورة لها يمارسون التجارة، كما أنها لعبت دور الوسيط بين الدول الأوروبية والممالك السودانية معتمدة على المسالك والشبكات التي تربط هذه المدينة داخليا وخارجيا، وقد برع التجار الطرابلسيين في تصريف بضاعتهم في مختلف الأقطار الإسلامية، ولا

شك أن تجارة طرابلس كانت تتأثر وترتبط بشكل واضح مع تجارة الجنوب الصحراوي، وما زاد من القيمة الاقتصادية لهذه المدينة هو الاهتمام الحفصي بها منذ القرن 13الميلادي لها، وبل كانت تعج بالتجارة والنشاط الاقتصادي[47].

3.4. قسنطينة

مدينة عتيقة جدا وكبيرة وهي عاصمة إقليم نوميديا سابقا في جهة الشرق الجزائري، وبعد قدوم العرب الفاتحين جعلوها موقعهم الحصين ومقر قوتهم العظمى، وهي من بناء الرومان وذات موقع ممتاز في أعالي الجبال، وهي من المدن المحصنة طبيعيا فيصعب الولوج إليها، وجاءت على لسان الحميري "وهي من مشاهير بلاد افريقية... كثيرة الخصب رخيسة السعر... وبها أسواق وتجارة، وأهلها مياسير ذو أحوال وأموال ومعاملات للعرب، والعسل بها والسمن كثير، ويتجهز بها إلى سائر البلاد[48]"، وقسنطينة مدينة غنية جدا بها عدد كبير من صناع والحرفيين وتعد مهنة التجارة المورد الكبير والأكثر ربحا لها، بحكم موقعها الممتاز الذي جعل منها مركز عبور للتجارة الصحراوية ومن ثم تكمل القوافل التجارية طريقها إلى السواحل وباقي التراب الحفصي، فنلاحظ في هذه المدينة ينشط إرسال بعثات القوافل التجارية إلى ليبيا والمدن الصحراوية المحملة بالمنسوجات الصوفية والحريرية والزيوت وتعود محملة بالتبر والعبيد والتمور[49]، وهي من بين المدن التي كان لها باعا طويلا في المنسوجات الكتانية وصدرت جزءا كبيرا منه إلى السودان، كما قايض تجار قسنطينة الأقمشة الكتانية مقابل التمر والعبيد مع تجار الجنوب[50].

4.4. اورجلان

وصف ابن سعيد المغربي مدينة ورجلان قائلا: "...**ومدينتها التي تسمى وركلان، حيث الطول عشرون درجة ونصف والعرض أربعة وعشرون درجة ونصف وعشر دقائق، وهي بلاد نخل وعبيد ومنها يدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وافريقية، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير**"[51]. ومن خلال طرح الجغرافي ابن سعيد أن أورجلان تميزت بالموقع الجغرافي الممتاز على مشارف الصحراء الكبرى في الجهة الشمالية لها، فكانت حلقة الوصل بين دول شمالي إفريقيا وعواصم الدول السودانية في السودان الغربي والأوسط فلعبت دورا محوريا بارزا في العالم الإسلامي ككل ولها الفضل الكبير في نشر الإسلام في دول إفريقيا جنوب الصحراء[52]، وهذه المدينة العتيقة في الصحراء بنيت على يد البربر، تميزت بالغنى ووفرة الأموال نظرا لامتهان أهلها التجارة مع السودان ويتوافد إليها تجار قسنطينة وتونس ويستبدلون سلعهم ببضائع واردة من بلاد السودان وهي فقيرة من القمح والحبوب فشاع لدى أهلها تناول لحم الجمال والنعام[53]، كانت ورجلان أهم مركز يبحث عنه التجار لما توفره من سبل الراحة، فالتجار الذين يطرقون الصحاري كانوا يتجنبون المسالك الوعرة والعروق الرملية والمتاهات الصحراوية، فيمرون من الواحات الكبرى والصغيرة والمناطق الآهلة بالسكان فيتبادلون سلعهم التجارية ويتزودون بالراحة والمؤونة لمواصلة رحلتهم، وورجلان هي أهم المدن الصحراوية التي تتوفر على هذه الميزات والشروط، فالقوافل التجارية القادمة من الشرق تجد نفسها مرغمة على المرور من

ورجلان لتتحاشى العرق الشرقي الكبير وكذلك القوافل القادمة من الغرب لتحاشي العرق الغربي الكبير[54]، فقد أولى الحكام الحفصيين أهمية لها فكانت عبارة عن ميناء تجاري يضم القوافل العابرة للصحراء حيث تتجمع فيها القوافل القادمة من الجريد التونسي والقيروان وقسنطينة ومدن الساحل الشرقي الجزائري وتكمل مسيرها نحو السودان[55]، مشكلة جسر عبور ومعبرا حيويا لكلا الجهتين لإفريقيا الغربية والشمالية، وابرز الصادرات الورجلانية إلى السودان الغربي تتمثل في التمور بمختلف أنواعها وهي أقدم تجارة عرفت التصدير إلى إفريقيا جنوب الصحراء[56]، أما مختلف السلع الأخرى فسيتم التطرق إليها في الجزء الخاص بالمبادلات التجارية التي جمعت الطرفين.

5.4. غدامس

تكلم عنها الحميري ووصف موقعها فقال: " **أنها في الصحراء على سبعة أيام من جبال نفوسة، وهي مدينة قديمة كانت سجونا للملكة الكاهنة بإفريقية، لم تكن ارض غدامس صحراء كانت عامرة خصبة يأكل أهلها التمر والكمأ، وهم بربر مسلمون ملثمون، وكان يأتي إليها القادمين من بلاد السودان**" [57]. ظلت غدامس ومنذ عهد الفينيقيين محطة عبور صحراوية وسوقا منظما للمعاملات التجارية يربط منه الشمال الإفريقي مع مدن السودان بصفة عامة، إذ لعب تجارها دورا محوريا في تنظيم القوافل والسهر على حمايتها وتدبير شؤونها وكانت عبارة عن محطة يجتمع فيها التجار للقيام بالمبادلات التجارية في كلا الاتجاهين، وقد اشتهر التجار الغدامسيين بالثراء الفاحش نظرا لتمرسهم في التجارة والملاحة الصحراوية وبلغت سلعهم مكانة مرموقة في القارة الإفريقية ككل، فقوافلهم التجارية لا تكاد تعرف التوقف طوال السنة، وللحفاظ على راحة الجمل ولياقته يتم استبدال جمال طرابلس وتونس في غدامس لمواصلة مسيرها، كما عمل التجار الغدامسيين في شكل ممولين لبعض المدن الشمالية، وهذا ما انعكس على توفر اليد العاملة ومجيء البعض من التجار الصغار للعمل فيها[58]، ويصف حسن الوزان وضعها الاقتصادي بأنها مليئة بالقصور وقراها مأهولة وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط ب300ميلا، وسكانها أغنياء يملكون الأموال وبساتين النخيل، وتجارتهم زاهرة مع بلاد السودان وتخضع لحكم شبه مستقل عن حكام تونس لكن يدفعون الضرائب والإتاوات لهم، كما القمح واللحوم تشهد ارتفاعا في السعر[59].

6.4. فزان

وهي عموم المنطقة الجنوبية الغربية لليبيا معظمها أراضي صحراوية تتخللها الوديان والجبال الصخرية وذكرها ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا:" **وتقع اغدامس التي ينسب إليها الجلد المفضل حيث الطول تسع وثلاثون درجة ودقائق والعرض تسع وعشرون درجة وعشر دقائق، وهي حصون على جادة التمر ببلاد كانم وفي شرقيها ودان، وهي جزائر نخل ومياه وأولها حيث الطول إحدى وأربعون درجة والعرض سبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة واليها كان يلتجئ المار في الطريق الطويلة المضنية، وفي شرقيها بلاد فازان وهي أيضا جزائر نخل ومياه ولها مدن وعمائر أكثر من ودان، والجميع الآن في طاعة ملك كانم،**

وقاعدة فزان مدينة زويلة" [60]. وبرزت منذ قرون عديدة لأنها أصبحت همزة وصل بين المشرق العربي وشمال إفريقيا والسودان الأوسط والغربي وهي من أهم طرق القوافل التجارية[61]، وفزان منطقة غنية تتشكل ثرواتها من التمر والأموال التي يربحها أهلها من التجارة مع السودان[62]، واعتمد ازدهار فزان على المسالك التي تربطها بمصر والسودان الأوسط والغربي كما تشقها الطرق العرضية التي تربطها بالمغرب الأقصى مرورا بالأراضي الجنوبية للمغرب الأوسط، وكانت هذه الطرق كلها في يد التجار العاملين في طرابلس، اكسبها موقعها الجغرافي مكانة إستراتيجية فهي تحتوي على الشعاب والوديان جعل من عاصمتها مدينة مرزق أهم مركز تجاري منذ نهاية القرن15ميلادي[63].

5. السودان الغربي وأهم مراكزه التجارية

1.5. ممالك السودان الغربي مابين القرنين (16-13م)

في هذا العنصر سنتطرق إلى المملكتين اللتين كونا الكيان السياسي للسودان الغربي ما بين القرنين13و16ميلادية والذي تزامن وجودهما مع وجود الدولة الحفصية وهما:

1.1.5 مملكة مالي1235-1469م

وقد بلغت هذه المملكة أوج عظمتها واتساع نفوذها وكثرة أموالها وثرائها انطلاقا من الربع الأول للقرن الثالث عشر فامتدت غربا من الساحل الأطلسي وشرقا إلى الحدود الحديثة لدولة نيجيريا وشمالا إلى داخل الصحراء الكبرى وجنوبا إلى حدود الغابات الاستوائية الإفريقية[64]، ومنذ منتصف القرن 15 ميلادية ساد هذه المملكة الاضطرابات والفوضى فتمت الإغارة عليها من طرف حكام مملكة سنغاي فاقتطعت منها ابرز مدنها تونبوكتوسنة1469م ولم تعد إلا مملكة صغيرة تسيطر على حيز جغرافي ضيق[65].

2.1.5 مملكة سينغاي1340-1591م

ويعود تاريخ تأسيس هذه المملكة إلى القرن السابع ميلادية على يد قبائل السنغاي المقيمة على ضفاف نهر النيجر، والتي حكمتها أسرة ديا حتى سنة 1325ميلادية واتخذت من مدينة كوكيا عاصمة لها ثم مدينة غاو، اعتنقت شعوب السنغاي الإسلام منذ القرن 11ميلادية[66]، ومع بدايات الأولى للقرن 14ميلادي بسطت مملكة مالي نفوذها على مملكة سنغاي وتم اعتقال ولدي الملك لكن تمكنا من الفرار واتجها إلى مدينة غاو لتأسيس مملكتهم الجديدة التي بدأت في التوسع على حساب مملكة مالي، وكان أول ملك تولى عرشها سنة 1340م هو علي كولن ولم يدم حكمه طويلا حتى توفي وخلفه أخوه سليمان نار[67]، وبذلك تتم تأسيس أول أسرة لقبت بـ (السني) نسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه[68]، وحتى سنة1469م تم غزو تمبكتو واقتلاعها من يد الطوارق بعد إن احتلوها سنة1433م كما استولوا على مدينة جني التي تبعد بمسافة500كلم عن تنبكتو[69]، وتعتبر شخصية على الأكبر من أعظم السلاطين الذين حكموا مملكة سنغاي نظرا لخدماته الجليلة في تقوية أركان هذه المملكة والذي في عهده تم السيطرة على مدينتي تنبكتو وجني، وبعد عودته من إحدى غزواته داهمه سيرا جارفا فلقي حتفه سنة 1492تاركا وراءه ابنه صاحب بضعة شهور لكن احد قواده

انقلب عليه وهو محمد توري والذي أسس طورا جديدا عرفت به مملكة السنغاي وهو عهد الأسكيين وهو اللقب الذي اتخذه ملوكها فيما بعد[70]، وفي نهاية القرن16م تم القضاء على مملكة سنغاي وتشتيت أوصالها من طرف ملوك المغرب السعديين خلال عهد منصور الذهبي الذي وجه إليها حملة عسكرية استولى خلالها على العاصمة غاو وكان ذلك سنة1591م[71].

2.5. أبرز المراكز التجارية للسودان الغربي

وفي الحيز الجغرافي لهذين المملكتين تتوزع أبرز المدن التجارية للسودان الغربي والتي سنوردها على النحو التالي:

1.2.5 تنبكتو

تكلم ابن بطوطة في شان هذه المدينة بقوله:" **تنبكتو بضم التاء وسكون النون وضم الباء وسكون الكاف وضم التاء وآخرها واو وبينها وبين النيل أربع أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام**" [72]. وتقع جغرافيا على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر فاعتبرت حلقة الوصل بين الصحراء الكبرى والسودان الغربي وهي قريبة من نهر النيجر، وحملت تنبكتو في نفوس الأفارقة عموما والسودان الغربي خصوصا مكانة عظيمة خلال حكم مملكة مالي بعد السيطرة عليها في القرن 12ميلادي وشاع صيتها في تجارة الملح والذهب وشاع فيها الأمن فلم يعد هناك ما يخشاه التجار على بضاعتهم وعبور الصحراء، حتى قيل عنها أنها الموضع الذي يلتقي فيه الجمل بالقارب النهري[73]، وبلغت هذه المدينة قمة ازدهارها خلال عهد مملكة مالي كما قلنا سابقا فكانت تنبكتو ملتقى القوافل العابرة للصحراء والمتوجهة الى بلاد السودان أو الراحلة صوب شمال إفريقيا[74]، وإلى جانب التجارة كان لها دورا بارزا في حركة الحج، إذ استقطبت المدينة الحجاج القادمين من السودان الغربي وقاصدين البقاع المقدسة، ولعل رحلة الحج الشهيرة لمنسى موسى سنة 1324ميلادي هي من أعظم رحلات الحجيج التي دونها التاريخ، فهذا الملك حكم مملكة مالي خلال القرن 14ميلادي، وبعد عودته احضر معه من مكة ومصر الفنيين والعلماء ورجال العمارة فساعدوا في بناء مساجد تنبكتو وقصورها وهذا خير دليل على مكانة تنبكتو العلمية والثقافية[75].

2.2.5. جاو(غاو)

أصبحت مدينة غاو بحكم موقعها الجغرافي على نهر النيجر عاصمة لدولة سنغاي وقد قامت على أنقاض مدينة قديمة مسماة كوكيا أو كوغا كما يسميها المؤرخون العرب[76]، وهي في المركز الثاني من القيمة الثقافية التي تتحلى بها بعد تنبكتو، وأصبحت عاصمة لمملكة سنغاي في عهد أسرة ضياء الأولى، وبلغت ذروتها في عهد أسرة السيفيين، ووصفت بالمدينة العظيمة، وتميزت هذه المدينة بتنوع سكانها بين تجار ورجال الدولة وطلبة العلم[77]، واستقبلت أسواقها تجار الملح والسلع الآتية من ليبيا ومصر وإفريقية (تونس) عبورا من مدينة تادمكة وقوافل توات وكذلك السلع القادمة من المغرب الأقصى، وأصبحت مدينة غاو سوقا كبيرة ومكتظة وإحدى المدن العامرة في الضفاف الشرقية للسودان الغربي[78]، والجدير بالذكر أن التجارة فيها خلال القرن

الخامس والسادس عشر ميلادية كانت في أيدي التجار العرب والبربر وبصفة خاصة تجار المغرب الأقصى والأقاليم الحفصية، وحرص التجارة خلالها على تنظيم أنفسهم جيدا بحيث ملكوا فروعا عديدة في المدن السودانية تسمح لهم بمعرفة تقلبات الأسعار ويملكون أيضا اساطيلا تجارية في النيجر بالإضافة إلى قوافل كبيرة من الثيران والجمال، ويمارسون في بيوعهم مختلف الأدوات المالية المتعارف عليها ذلك الوقت ومثلها مثل المدن السودانية فقد كانت تصدر العبيد والذهب وتستورد الأسلحة والخيول والمصنوعات الزجاجية وغيرها[79].

3.2.5. تادمكة

تقع تادمكة في شمالي شرق مدينة جاو على بعد تسعة أيام منها، وواحد وأربعون مرحلة من مدينة غدامس، وهي من أهم المحطات التجارية في العصر الوسيط وقد كانت حلقة وصل وملتقى للعديد من القوافل الصحراوية القادمة من مدينة غدامس وطرابلس[80]، وأخبر البكري عن مدينة تادمكة بقوله: "... **وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هو هيبة مكة، وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وأحسن بناءا من مدينة غانة وكوكوا وأهل تادمكة بربر مسلمون...**"[81]. فبالإضافة إلى تفضيل التجار الغدامسيين كانت تادمكة من أحسن الأسواق بالنسبة للتجار الورجلانيين والقادمين من جبال نفوسة والقيروان والمسافة بين تادمكة والقيروان قدرها البكري بقوله:" **وإذا أردت من تادمكة إلى القيروان بأنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى ورجلان وهي سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى اغرم إن يكامن أي حصن العهود ومنها إلى مدينة فسطيلية أربعة عشر يوما**" [82].

4.2.5. اودغشت

ذكر ياقوت الحموي أنها: " **على بعد مسيرة شهرين من مدينة سجلماسة المغربية، وهي مدينة لطيفة شرفها الله وحماها بمكة، لأنها بين جبلين، وفيها أسواق جليلة، والسفر إليها متصل إلى كل البلاد وأهلها مسلمون يقرؤون القران ويتفقهونه ولهم مساجد وجماعات، وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرى واللوبيا، وفي شرقهم السودان الأوسط وغربهم المحيط الأطلسي وشمالا الصحاري الكبرى**"[83].

وزيادة على ما قال ياقوت الحموي فاودغشت تعتبر من المراكز الثقافية الهامة التي كان لها دورا كبيرا في نشر الإسلام والثقافة العربية في منطقة السودان وهي البوابة الأولى في انطلاق المرابطين في الجهاد نحو السودان الغربي، وهي منطقة هامة في التجارة الصحراوية أهلها موقعها الجغرافي كبوابة جنوب الصحراء نحو العمق الإفريقي، واشتهرت اودغشت بازدحام أسواقها وتنوع المعروضات فيها من كل أنواع التجارة، وقصدها التجار المغاربة محملين بسلعهم، واشتهرت بالصناعات المعدنية والمتاجرة بالأقمشة الحريرية التي يدفع مقابلها ذهبا[84].

5.2.5. جني

وتسمى لؤلؤة النيجر وارتبط ازدهارها بازدهار تنبكتو، فمنذ القرن 12ميلادي فأصبحت في المركز الثالث من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كله بعد تنبكتو وغاو، واحتلال المرتبة الثانية في الناحية

الثقافية بعد تنبكتو، وذلك لوجود عدد كبير فيها من العلماء وطلاب العلم[85]، وهي سوق من أسواق التجار المسلمين خلال العصر الوسيط حيث يجتمع فيها تجار الملح والذهب، كما تعتبر من أبرز أسواق النخاسة، ويبدو أن تأسيسها كان خلال القرن الثالث هجري الثامن ميلادي عن طريق بعض القبائل الإفريقية[86]، وموقعها الجغرافي ممتاز، حيث تبعد بمسيرة مئتي ميل إلى الجنوب الغربي من تنبكتو وتقع على الضفة اليسرى من نهر بني احد روافد نهر النيجر، ويعود تاريخ دخولها الإسلام إلى القرن السادس هجري، كما أنها لعبت حلقة وصل في التجارة القادمة من شمالي إفريقيا عبر تنبكتو والتجارة القادمة من الغابات جنوبي جني[87]، وقد أكد المؤرخ السعدي على أهمية جني حيث قال:" **وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك في أرضها خلقا وجبلا وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمساواة ... وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح وأرباب الذهب وكلا المعدنيين المباركين ما كانت مثلها في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرا وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى**" [88].

وقد أيد هذا الكلام المؤرخون الأوروبيون، حيث قالوا عنها أنها كانت سوقا من أسواق المسلمين يجتمع فيها تجار الملح من تغازى وتجار الذهب من باكوكو ويعود لها الفضل في تجمع القوافل في مدينة تنبكتو، وأصبحت مركزا ثقافيا مشعا نافست فيه عاصمة الماليين تنبكتو[89]، وأيضا ما يدل على عظم هذه المدينة زيارة الحسن الوزان لها في القرن16ميلادي والذي شهد على قوتها التجارية والزراعية حيث قال: "...**ويكثر هنا الشعير والأرز والماشية والسمك والقطن بشكل مفرط، ويجني سكان البلاد أرباحا عظيمة من تجارة أقمشة القطن التي يمارسونها مع تجار بلاد البربر ويبيع منهم هؤلاء بالمقايضة الكثير من الأقمشة الأوروبية، والنحاس والأسلحة مثل الخناجر، والعملة التي يستخدمونها الزنوج من الذهب الغير مسكوك أي التبر كما يستعملون قطع من الحديد لتسديد ثمن أشياء زهيدة القيمة كالحليب والخبز والعسل**" [90].

6.2.5. ولاته

يبدون أن الفضل في إنشائها يعود إلى اليهود قبل مجيء الإسلام إليها، فقد كانت تضم أبرز مناجم الملح السلعة الأهم ذلك الزمان، وتخترقها الطرق التجارية من كل الجهات، فكانت هذه المدينة مرشحة بقوة لخلافة مملكة غانا ومدينة اودغشت، وعمل التجار البربر على تطوير اقتصاد هذه المدينة إلى حد كبير وبلغت ذروة مجدها خلال القرنين 13 و14ميلادية[91]، وما لبثت أن أصبحت ولاته سوقا كبيرا خلال بدايات القرن 12م تعج بالتجار من سائر البلاد المغاربية والسودانية، كما أصبحت كالمنزل لأثرياء المغرب يعود سبب ذلك إلى الأمن الذي لمسه التجار على أرواحهم وممتلكاتهم[92]، وقد تكلم ابن بطوطة الرحالة الشهير على امن مدينة ولاته قائلا:" **فلا يخاف مسافر فيها ولا مقيم من سارق ولا غاصب مع عدم تعرضهم لمال من يموت من البيضان ولو كان بالقناطير المقنطرة**" [93].

وكان من عادة التجار القدوم إلى ولاته قبل تأسيس تنبكتو لكن بعد تأسيسها انتقل مركز القوى إليها وصاحبه تقهقر واضح لولاته إذ أن التجار المغاربة انتقلوا من ولاته إلى تنبكتو، حتى تحقق القول أن عمارة

تنبكتو خراب ولاته[94]، وقد سقطت ولاته في ملك مالي سنة 1353 حيث استمر حالها في نزيف التجار لصالح تنبكتو والتيارات التجارية نحو مسالك الطرق الشرقية بالصحراء الوسطى، وبقيت تراوح مكانها وأصبحت سوى مركز تجاري متقدم ومحطة ضرورية للحجاج الأفارقة ومن هنا جاء طابعها الديني والتاريخي[95].

6.السلع الصادرة من طرف الدولة الحفصية

كانت الدولة الحفصية تصدر على وجه الخصوص المواد الخام وعلى رأسها الصوف والجلود والزيت والتمور والقمح والملح والشب والشمع والرصاص والمرجان وكميات قليلة من الألبسة [96]، ونذكر على سبيل المثال أهم منتجات وهي:

1.6. الملح

الجدير بالذكر والذي يجب أن نشير إليه للباحثين هو أن الملح كانت مناطق استخراجه متوفرة في السودان الغربي والدولة الحفصية، والتجار العرب والطوارق القادمين من دول شمال إفريقيا ووسط الصحراء هم من احتكروا مهمة نقله والمتاجرة بالملح ، فكان الملح ينقل أساسا من شمال مالي إلى جنوب السودان الغربي من مدينتي بلما ومن تاودني[97]، والملح كان من السلع القيمة، ولم يلاحظ تصديره أو نقله على ظهور الجمال من السودان الغربي إلى المناطق الشمالية لإفريقيا، وسبب ذلك أن الدولة الحفصية كانت تتوفر على مناجم من الملح ذات تستغل محليا ويصدر منه الفائض إلى المدن الايطالية نظرا لجودته العالية، ولعل السباخ الواقعة غربي مدينة بسكرة والمناجم الملحية المتواجدة في تونس وطرابلس مهيأة للاستعمال المحلي والتصدير الخارجي، وتزويد السكان بالملح يعتبر من اختصاص السلطان أو الوكيل الحفصي حكرا عليه وعملية تستحق الاحترام والتقدير نظرا لأهمية الملح البالغة ذلك الزمان[98]، كما شكل الملح السلعة الأساسية التي حملتها القوافل العابرة للصحراء وشكل أهم المبادلات التجارية وحافزا اقتصاديا بلغت فيه مملكة مالي ذروة رخائها[99]، وهو من السلع النادرة قديما بحيث كان العبد يشتري بموقع قدمه ملحا، وان الملح يباع بوزنه ذهبا[100]، كما شاعت مدينة تغازى في تجارة الملح والتي كانت عبارة عن منجم ملح تتطلع إليه كل بقاع السودان الغربي حيث تصدر منه كميات كبيرة إلى مدينة تنبكتو وينقل الملح في شكل ألواح كبيرة ليس في وسع البعير حمل إلا اثنتين منها لشدة ضخامتها، وبالإضافة إلى مواد البناء المعروفة يبدو أن هذه الألواح الملحية استعملها الأفارقة كمواد بناء في تشييد المساجد وتغطية سقف البيوت[101].

2.6. الألبسة والمنسوجات

رغم أن إنتاج القطن كان متوفرا في السودان بصفة عامة إلى أن اللباس الصوفي والحريري الشمال الإفريقي ولباس ما وراء البحر المتوسط كان محببا في بلاد السودان، ويعزى ذلك أن إنتاج السوداني من هذه المادة لم يكن ليكفي الطلب المحلي دعاهم هذا إلى استرداد اللباس من الضفة الشمالية لإفريقيا وتأتي الأقمشة بصنوفها واللباس الحريري على رأس هذه المنتوجات[102]، ومن المدن الحفصية التي اشتهرت بصناعة المنْسوجات الصوفية مدينة قفصة التي امتازت بصناعة الأردية والطيالس والعمائم الصوفية فكانت غاية من

الرقة، كما كانت إحدى قاعدتي بلاد نفزاوة ببلاد الجريد تنسج ثياب وأقمشة صوفية جيدة، فزاد الطلب عليها وصدرت إلى الإسكندرية وغيرها من البلدان، ونُسب إلى مدينة درجين، وهي من أواخر بلاد الجريد القماش الدرجيني الذي يُضاهي الثياب السجلماسية، وسوسة فخلال فترات طويلة استمرت منذ القرن 11 إلى 14م أنتجت أنواعا من الأكسية الرقيقة والثياب الصوفية مما لا يقدر أحد على صنعها، لمهارة أهلها في أمور الغزل والنسج دون غيرهم في هذا الأمر[103]، واشتهرت حاضرة ورجلان أيضا المتاخمة على الأطراف الصحراوية الجنوبية للدولة الحفصية بالصناعات النسيجية، وذلك راجع لتوفر المادة الأولية في هذه الصناعة من صوف الأغنام وشعر الماعز ووبر الجمال، وخصص لها ركن خاص في أسواق ورجلان، وتتم عملية حياكتها بطريقة يدوية داخل غرف المنازل، وتشرف عليها النسوة، ويتم تصدير الفائض منها إلى السودان الغربي وباقي المدن الأخرى، وابرز أنواع المنسوجات الورجلانية القابلة للتصدير هي الحنابل والأغطية وبعض الألبسة البسيطة والخيام المنسوجة بشعر الماعز والأقمشة الصوفية وغيرها[104].

3.6. الكتب

أثرت الثقافة الإسلامية بشكل ملحوظ في السودان الغربي وخاصة في عهد مملكتي مالي وسنغاي وكانت جامعة سان كوري تخرج العلماء في الآداب والعلوم وبلغت أوجها الثقافي والعلمي خلال هذا العصر ولعبت المدن الثقافية كما رأينا سابقا دورا بارزا في هذا المجال مثل تنبكتو وجني وغيرها، حتى إن بعض المؤرخين وصف تجارة الكتب على أنها اكبر تجارة في هاتين الإمبراطوريتين(مملكة مالي ومملكة سينغاي)[105]، وتعتبر رحلة الحج الشهيرة لملك مالي منسى موسى عام 1324ميلادي إحدى السمات التي تعبر على تعلق هذه المملكة بعلوم الدين، فقد اشترى هذا الملك الكثير من الكتب الدينية وجلب معه العلماء والنحاتين والفنانين، أما في الدولة الحفصية فتكلم الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا أن القيروان ازدهرت خصيصا بالدراسات الدينية في مرحلة من تاريخها حتى أن أكثر علماء إفريقيا من خريجيها[106]، وقد وصل إلى السودان الغربي الكثير من الكتب أبرزها كتاب صحيح البخاري وكتاب في النحو والصرف مثل كتاب قطر الندى وبل الصدى لابن هشام وغيرها من الكتب الإسلامية، وأسباب ذلك هو اهتمام الناس بها وحاجة التجار لاقتنائها، فكانت ترد هذه الكتب من الحجاز ومصر وبلاد المغرب وكانت تنبكتو سوقا رائجا لها[107]، إضافة إلى تجارة المخطوطات كذلك، فذكر المؤرخ الحسن الوزان في باب ذكر مدينة تنبكتو[108]:"...**ويباع الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر ويجني من هذا البيع ربح يفوق بقية كل السلع**".

4.6. منتجات أخرى

وصلت إلى السودان الغربي بعض السلع الشمال افريقية مثل الخيول والمعادن والأسلحة والأصباغ والعطور وبعض أنواع الخشب والأواني الفخارية والقمح والتمور وغيرها من السلع التي كانت تصدر سواء من المدن الحفصية أو المدن المجاورة لها في الجنوب[109].

7. السلع الصادرة من السودان الغربي إلى الدولة الحفصية

1.7. الذهب

كان الذهب معروفا ومشهورا في مملكة غانا وعاصمتها كومبي، وقد أسهب الرحالة والجغرافيين العرب أمثال الإدريسي وياقوت الحموي في وصف غانا وذهبها، وصرحا أن غانا كانت تعتمد على تجارة الذهب بشكل كبير والذي كان على جانب كبير من الوفرة بحيث توجب مراقبة مقاديره الآتية إلى السوق خوفا من ركود قد يحل بأسعاره، وجعله حكرا في يد الملك، وهذا الإجراء يتم بجعل الكتلة الذهبية الكبيرة في يد الملك وترك تراب الذهب للعوام لتجارة به، وكان التجار المغاربة يأتون محملين بالسلع الرخيصة ويضيفون لها الملح عند مرورهم بمدينة تاغازا وعند وصولهم إلى كومبي يجدون وكلائهم في انتظارهم فتتم عملية المقايضة بين الذهب والسلع المغربية ويعودون أدراجهم محملين بالذهب وبعض المنتجات الإفريقية[110]، وبعد سقوط مملكة غانة عادت تجارة الذهب إلى ازدهار وبروزه إلى واجه الصادرات السودانية إلى الشمال الإفريقي ومنه إلى سائر دول العالم، حيث عدت مملكة مالي في القرون الوسطى اكبر منتج له في العالم آنذاك بعدما كانت قبلها مملكة غانا، وبرعت هذه المملكة في صياغة الذهب، وقد صحب المنسى موسا ملك مالي خلال رحلة إلى الحج معه ألاف الرعايا وكميات كبيرة من الذهب ووزعها في طريقه على الفقراء وعلى ملوك مصر المماليك، وتشير المصادر أن الذهب في القاهرة أثناء إقامة هذا الملك قد شهد ركودا حادا في السوق نتيجة وجود فائض كبير الذي كانت عطايا وهدايا ملك مالي السبب الرئيسي فيه، واستمر هذا الركود إلى مدة طويلة[111].

يعتبر الذهب بالنسبة الدولة الحفصية أبرز السلع ذات الاتجاه المزدوج من ناحية التوريد والتصدير فقد كان يحظى بتقدير كبير في كافة أنحاء العالم، كانت فيه الدول الحفصية عبارة عن عامل منظم عبر قوافلها التي تقتني الذهب من بلاد السواد تم يعبر موانئها إلى ما وراء البحار لكن يبقى جزء منه داخل الدولة وهذا ما انعكس إيجابا على قيمة عملة الذهب الحفصية من حيث الثبات والسلامة عبر جميع تقلبات التي شهدتها الدولة الحفصية[112].

2.7. العبيد

كانت تجارة الرقيق رائجة بشكل واسع وتدر الربح الوفير على ملاكها وكانت تمارس على نطاق واسع بين السودان الغربي والأندلس وتعتبر البلاد المغربية ككل هي الحلقة الوصل بين المنطقتين[113] كما كانت أيضا تجارة العبيد من أشهر مبادلات ذلك الوقت، إذ كان العبيد يجلبون من بلاد السودان الغربي خاصة من أكبر سوق للنخاسة في مدينة غاو، وأصبحت تجارة العبيد تجارة رائجة جدا لحاجة الناس إليها خاصة طبقة الملوك والنبلاء[114]، وأهم فئات العبيد في بلاد المغرب هم من حواضر السودان ثم يوجهون إلى المغرب الأقصى والى الأندلس وإلى ورجلان والجريد وإلى إفريقية(تونس) وفزان وطرابلس وبرقة وإلى سائر البلاد المغرب، وكان هؤلاء العبيد يوجهون إلى العمل في الحقول ومناجم الذهب وحراسة القوافل التجارية، وفي الورشات الحرفية

واستخدامهم في الأعمال المنزلية ولا تعود أسباب انتشار ظاهرة الاسترقاق في إفريقيا ورواجها إلى الفتوحات الإسلامية فقط بل كانت تمارس منذ غابر الأزمنة، فالفتوحات الإسلامية وسعت سبل انتشارها لا أكثر، وزاد معدن الذهب من رواج هذه الظاهرة ومن أهم المدن المغاربية التي استقبلت باعة العبيد هي اورجلان وسجلماسة [115].

3.7. القطن

تطورت صناعة النسيج في السودان الغربي بصفة ملحوظة وخاصة أن مواد النسيج موجودة مثل الوبر والصوف والقطن وهذا الأخير موجود بشكل ملفت وخاصة في مدينة جني المشهورة بصناعات القطنية وأكد الحسن الوزان أثناء زيارته للاسكيا محمد الكبير في بداية القرن العاشر هجري على انتشار دكاكين حياكة القطن حيث كان البعض من الناس يقومون بغزله والبعض الآخر اختص بنسجه، وكان القطن يستخدم كوسيلة لمقايضة مع بضاعة الشمال الإفريقي المجلوبة للسودان الغربي[116]، وقد شاهد حسن الوزان مقايضة القطن السوداني مع المنتجات الشمال افريقية أثناء رحلته إلى جني فقال: " **ويجني سكان البلاد أرباحا عظيمة من تجارة أقشمة القطن التي يمارسونها مع تجار بلاد البربر ويبيع منهم هؤلاء بالمقايضة الكثير من الأقمشة الأوروبية**" [117].

4.7. منتجات أخرى

إن الصادرات السودانية إلى الحفصيين وعموم المغرب لم تقتصر على ما تم ذكره فقط، بل تعداه إلى تصدير الجلود لكونها تدخل في الصناعات التقليدية مثل الأحذية والسروج والأغماد السيوف وحمالات النقود، ويأتي العاج من المنتوجات التي عمل السودان الغربي على تصديره ومصدره أنياب الفيلة ويصدر إلى ورجلان ومنها يتكفل تجار الشرق الجزائري بنشره في كامل الأصقاع، وهناك التوابل التي تميزت مدن السودان الغربي بإنتاجها ونشط التجار العرب في نقل كميات ضخمة منها إلى شمالي إفريقيا ومنه ما يصدر إلى الدول الأوروبية[118]، ومجموعة أخرى من الصادرات السودانية نذكر منها المواد الطبية والعطور والأنسجة القطنية والخشب والمعادن كالذهب والنحاس والصمغ والبعض من أنواع الأغنام والحناء والفول السوداني والكثير من المنتوجات الإفريقية[119].

8. المعاملات المالية التي كانت تمارس في التجارة

1.8. البيع بالمقايضة

لم يكن هناك خلال القرون الوسطى نظاما نقديا معينا، واتخذت المقايضة منذ تأسيس غانا أساسا تجاريا، وكان العرب يحملون بضاعتهم إلى واد السنغال ويعرضونها هناك ويأتي الإفريقي ويعوض قيمتها ذهبا، وبعده يأتي التاجر العربي بعد انسحاب الإفريقي، وإن لم يرضى التاجر بالثمن فيمتنع عن حمل الذهب فيرجع الإفريقي فيزيد الذهب أو أنه يرفع شعارا بأنه لا يمكنه الدفع أكثر، وأدخلت عدة وسائل أخرى للمقايضة مثل قوالب الملح وبعض الفواكه حتى القرن 14ميلادي بعد أن سك الأفارقة عملة خاصة بها من الذهب[120]، وشاع

أسلوب المقايضة عند التجار العرب خلال عهد مملكة مالي وغانا وسنغاي واستمرت المقايضة حتى زماننا هذا في مناطق الصحراء الكبرى.

2.8. البيع بالعملة النقدية

استعمل في التجارة كذلك التعامل النقدي لثبات قيمته ومن هنا ظهرت العملات الذهبية والفضية والنحاسية والتي صار لها قوة النقد وتم تقييم السلع بهذه العملات، كما انتقلت الموازين والمكاييل العربية إلى أهالي السودان الغربي نتيجة الاختلاط الثقافي والاقتصادي والتعامل التجاري الذي جمع الطرفين[121].

3.8. البيع بالودع

وهو عبارة عن صدف أو قواقع بحرية صغيرة أو يسمى خزف البحر وهو في الأصل بيت الحلزون يرميه البحر في الشواطئ، والودع الممتاز كان السودان الغربي فقيرا منه فتكفل التجار العرب بنقل كميات كبيرة منه واستعمل كعملة لشراء مختلف البضائع، وذكر السعدي أن ملك تنبكتو قام بغزوة تأديبية إلى مدينة جني فغار عليهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأخذهم معه إلى تنبكتو وباعهم بين 200 و400ودعا[122]، وهذه الطريقة المالية يبدو أنها استعملت لشراء العبيد في السودان الغربي لقرون متقدمة.

خاتمة

صفوة القول ومن خلال ما سبق عرضه يتضح لنا أن العلاقات بين ضفتي إفريقيا الشمالية والغربية لم تكن منقطعة بل كانت متجذرة منذ غابر العصور، فالشعوب التي سكنت إفريقيا كانت على اتصال مباشر بين بعضها البعض وعزز هذا الاتصال الوجود القرطاجي والروماني فيما بعد، وتواصلت وتعمقت أكثر مع مجيء العرب الفاتحين لتتوج مرحلة اقتصادية وسياسية وصفت بأنها أزهى الفترات التي جمعت الممالك السودانية الإسلامية في السودان الغربي ودويلات شمال إفريقيا بصفة عامة ما بين القرن13م والقرن16م.

ولعبت القافلة الصحراوية دورا محوريا في تقريب الشعوب ودمج الثقافات وصهر المجتمعات، كما أن الصحراء وظروفها القاسية لم تكن عائقا أمام الحركة التجارية بين مختلف الحواضر التي شملها محور دراستنا، وانعكس التبادل التجاري في الرقي الاجتماعي وبزوغ مدن تجارية كانت محطات مهمة في سير القافلة التجارية، كما أن التبادل التجاري تتحكم فيه الحاجة حيث صدرت المدن الحفصية الفائض عن حاجياتها إلى أرض السودان الغربي واستوردت ما يلزمها وينقصها وفعلت الحواضر السودانية الغربية نفس الأمر.

الهوامش:

1 جى دى، فيج جى دى، **تاريخ غرب أفريقيا**، تر: السيد يوسف النصر، القاهرة، ط1، دار المعارف، 1982، ص42.

2 البرغوثي، عبد اللطيف محمد، التاريخ **الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي**، ج1، بيروت د.ط، دار صادر، 1971، ص228.

3 هوبكينز، جو، التاريخ **الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، تر: احمد فؤاد بلبع، تق: محمد عبدالاني سعودي مصر، ط7، الهيئة العامة للمكتبة الإسكندرية، 1997، ص158.

4 البرغوثي، عبد اللطيف محمد، المرجع السابق، ص229.

5 هوبكينز، جو، المرجع السابق، ص158.

6 المرجع نفسه، ص158.

7 عبد القادر، خليفة، "**تحولات البنى الاجتماعية وعلاقاتها بالمجال العمراني في المدن الصحراوية الجزائرية دراسة انثروبولوجية لمدينة تقرت**"، أطروحة دكتوراه، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2011، ص158.

8 برنشفيك، روبار، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م**، تر: حماد الساحلي، ج2، بيروت، ط1، دار العرب، 1998، ص451.

9 عبد الرحمان ابن خلدون، **العبر**، تق: ابو صهيب الكرمي، الأردن، ط1، بيت الأفكار الدولية، (د:ت)، ص1656.

10 شكري، احمد، الإسلام **والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230-1430**، أبو ظبي، ط1، المجمع الثقافي، 1999، ص263.

11 الدالي، الهادي مبروك، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، القاهرة، ط1، دار المصرية اللبنانية، 1999، ص318.

12 البكري، (1873)، **المسالك والممالك**، هولندا، ط1، مطبعة بريل، ليدن، 1873، ص32.

13 كربخال، مارمول، **إفريقيا**، ج1، تر: عماد حجي وآخرون، المغرب، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984، ص51.

14 أمين، إبراهيم حامد، التبادل **التجاري بين إقليمي توات والسودان الغربي وأثره الاجتماعي والثقافي (999-1317هـ/ 1591-1900)**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، غرداية، 2015، ص82.

15 الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج1، مصر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 1989، ص107.

16 العلوي، حسن حافظي، (2014)، **دراسات صحراوية الماء والإبل والتجارة**، الرباط، ط1، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، 2014، ص171.

17 المرجع نفسه، ص175.

18 وهو اسم أطلق على الجمال، كما يطلق أيضا على المستكشف للصحراء الذي هو بمثابة عين التي تسير من خلالها القافلة.

19 بن موسى، جميلة، تجارة **الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن الثالث إلى الخامس الهجري 9-11م**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2000، ص60.

20 سيطر الطوارق على معظم الصحراء الكبرى، ولفظ الطوارق عربي الأصل كما ذكر بعض المؤرخين وعلى حسب الروايات الشفوية المتناقلة عند كبار شيوخ الطوارق، لكن لا يعترفون إلا بأسماء قبائلهم ذات المدلول المشتق من لغتهم وهم دائمو الحركة والترحال، مهنتهم الأساسية رعي الماشية، ويعود الفضل لهم في بناء مدينة تنبكتو خلال القرن 11ميلادي، وما يؤسف له في هذا القوم أن كل الصفات القبيحة ألصقت بهم من طرف من عاشروهم ، فحياتهم البدوية حولتهم إلى لصوص وقتلة ومجرمين، وحرفتهم الأساسية هي السرقة، والسلب والاعتداء على جيرانهم والقوافل التجارية والرحالة والمستكشفين، وان لا عهد لهم ولا أمان والخديعة وسيلتهم، ومخالفون لشريعة الإسلامية على حد وصف أهل السودان، انظر: دي بوا، فيليكس، **تومبكت العجيبة**، تر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص184.

21 بن موسى، جميلة، المرجع السابق، ص58.

22 العلوي، حسن حافظي، المرجع السابق، ص180.

23 جبودة، مريم محمد عبد الله، **التجارة في بلاد افريقية وطرابلس الغرب (980-555هـ/1160 1872م)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، مصر، 2008، ص253.

24 باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، بيروت ط1، دار الكتب العلمية، 2007، ص87.

25 الكشاط، محمد السعيد، **عرب الصحراء الطوارق**، ايطاليا، ط2، مطابع اديتار، 1989، ص76و77.

26 جعفري، مبارك، **الازواد خلال القرن 13هـ/19م**، الجزائر، ط1، دار الكتاب العربي، 2021، ص325 و326.

27 المسعودي، جميلة مطي، **المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 261هـ وحتى سنة 893هـ**، رسالة ماجستير، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، 2000، ص127.

28 الإدريسي، المصدر السابق، ص107.

29 بن موسى، جميلة، المرجع السابق، ص51.

30 المرجع نفسه، ص183.

31 المرجع نفسه، ص72.

32 المرجع نفسه، ص184.

33 شعباني، نورالدين، **محاضرات في تاريخ السودان الغربي**، الجزائر، ط1، دار الجزائر، 2015، ص55.

34 نهر النيجر أو نهر النيل كما سماه الجغرافيين العرب اعتقادا منهم انه جزء من النيل يسير تحت الأرض إلى بحيرة تشاد متجها إلى الغرب مكونا عدة بحيرات أخرى أبرزها بحيرة النيجر ويتفرع إلى عدة انهار في اتجاه الغرب في منعرجات كبيرة وصولا إلى المحيط الأطلسي الذي يتخذ منه مصبا له. انظر: كربخال، مارمول، المرجع السابق، ج1 ص55.

35 منشورات اليونسكو، **تاريخ إفريقيا العام**، مج4، إشراف ج. نياني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988، ص215.

36 فاليرين، دومينيك، (د:ت)، **بجاية ميناء مغاربي1510/1067م**، تر:علاوة عمارة،ج1، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ص299.

37 ذكار، احمد، **حاضرة ورجلان وعلاقاتها التجارية مع السودان الغربي 1591-1883م**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، احمد دراية، ادرار، 2010، ص63.

38 المرجع نفسه، ص69.

39 فاطمة، بلهواري، (د:ت)، **العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا السوداء خلال القرن الرابع الهجري /10م** مجلة عصور، مجلد5، العدد2، جامعة وهران، ص153.

40 القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، تح: مؤلف مجهول، بيروت، دار صادر، 2007، ص245.

41 الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح: احسان عباس، لبنان، مكتبة لبنان، 1974، ص486.

42 المصدر نفسه، ص486.

43 الوزان، الحسن، وصف **أفريقيا**، تر: عبد الرحمن حميدة، مصر، ط1، مطابع الهيئة العامة للكتاب، 2005، ص464.

44 هدية، محمود، **اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، بريطانيا، مؤسسة هنداوي سي أي سي، 2019، ص174،134،71،16.

45 بن موسى، جميلة، المرجع السابق، ص197.

46 القزويني، المصدر السابق، ص417.

47 احويلات، فاطمة علي امحمد، **تجارة القوافل بين طرابلس والمراكز التجارية جنب الصحراء في الفترة من (600هـ-1164هـ) (1203-1750م)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2016، ص89.

48 الحميري، المصدر السابق، ص480.

49 كربخال، مارمول، المرجع السابق، ج3، ص11.

50 هدية، محمود، المرجع السابق، ص194،139.

51 المغربي، ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، تح: إسماعيل العربي، بيروت، ط1، منشورات المكتب التجاري للنشر والتوزيع، 1980، ص126.

52 بوعصبانة، عمر سليمان، **معالم الحضارة الإسلامية بورجلان**، رسالة ماجستير، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر، 1992، ص137.

53 كربخال، مارمول، المرجع السابق، ص166.

54 بوعصبانة، عمر سليمان، المرجع السابق، ص137.

55 ذكار، احمد، المرجع السابق، ص56.

56 المرجع نفسه، ص95.

57 الحميري، المرجع السابق، ص428.

58 البابور، منصور محمد، **غدامس التحضر والقاعدة العسكرية، بنغازي**، ط2، منشورات جامعة قار يونس، 1995، ص30.

59 الوزان، الحسن، المصدر السابق، ص516.

60 المغربي، ابن سعيد، المصدر السابق، ص127.

61 الأبيض، رجب نصير، **مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية دراسة في التاريخ السياسي والاقتصادي ليبيا**، ط1، مركز جهاد الليبيين، 1998، ص35.

62 كربخال، مارمول، إفريقيا، ج3، ص174.

63 الأبيض، رجب نصير، المرجع السابق، ص36.

64 جى دى، فيج جى دى، المرجع السابق، ص58.

65 مولاي، محمد، **القضاء والقضاة ببلاد السودان الغربي من أواخر القرن التاسع الهجري حتى ثاني عشر هجري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الحضارة الإسلامية**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران1، الجزائر، ص26.

66 المرجع نفسه، ص26.

67 شاكر، محمود ونافذ أيوب بيلتو، **مالي**، دمشق، ط1، المكتب الإسلامي، 1977، ص49.

68 عبد الحميد، مقاديم، المدارس **العلمية ودورها السياسي والثقافي في السودان الغربي10.7هـ/16.13م**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، وهران، 2018، ص98.

69 باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص114.

70 عبد الحميد، مقاديم، المرجع السابق، ص100.

71 شاكر، محمود ونافذ أيوب بيلتو، المرجع السابق، ص52.

72ابن بطوطة، تحفة **النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تق: محمد عبد المنعم العريان بيروت، ط1، دار إحياء العلوم، 1987، ص707.

73 باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص96.

74 ي، ساقلييف و ج. فاسلييف، **موجز تاريخ إفريقيا**، تع: أمين الشريف، القاهرة، ط1، مؤسسة العصر الحديث للنشر، (د.ت)، ص33.

75 طاهر، احمد، **أفريقيا فصول من الماضي والحاضر**، القاهرة، ط1، دار المعارف، 1975، ص72.

76 منشورات اليونيسكو، المرجع السابق، ص200.

77 جاسم، ظاهر، **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال**، مصر، ط1، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، (د:ت)، ص60.

78 منشورات اليونسكو، المرجع السابق، ص200.

79 المرجع نفسه، ص216.

80 احويلات، فاطمة علي امحمد، المرجع السابق، ص148.

81 البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د:ت)، ص181.

82 المصدر نفسه، ص182.

83 الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، مج:1، بيروت، ط1، دار صادر، 1977، ص278.

84 دنس، عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، مصر، ط1، دار الغرب الإسلامي، الإسكندرية، 1988، ص157 -158.

85 ظاهر، أحمد، المرجع السابق، ص59.

86 شاكر، محمود ونافذ أيوب بيلتو، المرجع السابق، ص77.

87 احمد، مهدي رزق الله، **حركة التجارة والإسلام والتعليم العربي في إفريقيا وآثارها الحضارية**، الرياض ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1998، ص361،363.

88 السعدي، تاريخ **السودان**، إشراف السيد هوداس، انجي، مطبعة باردين، 1898، ص11و12.

89 الفيتوري، عيطة مخزوم، **دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء**، بنغازي، ط1، منشورات جامعة قار يونس، ص289.

90 الوزان، الحسن، المصدر السابق، ص538.

91 مصطفى، ناعمي، **الصحراء خلال بلاد تكنة – تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**–، المغرب، مكتبة العكاظ، 1988، ص57.

92 لطيف، عبلة محمد سلطان، **العناصر المغربية في السودان الغربي دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سينغاي**، القاهرة، ط1، الإفريقية الدولية للنشر والتوزيع، 2011، ص92.

93 ابن بطوطة، المصدر السابق، ص672.

94 لطيف، عبلة محمد سلطان، المرجع السابق، ص92.

95 مصطفى، ناعمي، المرجع السابق، ص57.

96 برنشفيك، روبار، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن13الى نهاية القرن15م**، تر: حمادي الساحلي، بيروت، ط1، دار الغرب، 1998، ص460.

97 باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص99.

98 المرجع نفسه، ص239.

99 ي، ساقلييف و ج. فاسلييف، المرجع السابق، ص33.

100 الكشاط، محمد السعيد، المرجع السابق، ص76.

101 باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص99.

102 احويلات، فاطمة علي امحمد، المرجع السابق، ص170.

103هدية، محمود، المرجع السابق، ص146.

104 ذكار، احمد، المرجع السابق، ص96.

105 جاسم، ظاهر، احمد، المرجع السابق، ص74.

106 الوزان، الحسن، المصدر السابق، ص464.

107 احويلات، فاطمة علي امحمد، المرجع السابق، ص169و170.

108 الوزان، الحسن، المصدر السابق، ص541.

109 احويلات، فاطمة علي امحمد، المرجع السابق، ص171.

110 بوفيل، **(تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، تر: الهادي ابولقمة ومحمد عزيز، بنغازي، ط2 منشورات جامعة قاريوس، 1988ن ص150.

111 جاسم، ظاهر، المرجع السابق، ص41و42.

112 روبار برنشفيك، المرجع السابق، ص278.

113 سكاكو، مريم، **المجالس العلمية السلطانية لبلاد المغرب الإسلامي ودورها في التواصل الفكري من القرن (09-07هـ/15/13)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، 2018، ص79.

114 حمزة، عبد الصمد، **أهل الذمة في الدولة الزيانية (962-633هـ/1235-1554م)**، أطرحة، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1، وهران، 2017، ص120.

115 بن موسى، جميلة، المرجع السابق، ص175.

116 الدالي، الهادي مبروك، المرجع السابق، ص289.

117 الوزان، الحسن، المصدر السابق، ص539.

118 ذكار، احمد، المرجع السابق، ص102و103.

119برنشفيك، روبار، المرجع السابق، ص460.

120 نعيم قداح، إفريقيا **الغربية في ظل الإسلام**، مصر، ط1، سلسلة الثقافة الشعبية، 1960، ص128.

121 احويلات، فاطمة علي امحمد، المرجع السابق، ص226.

122 السعدي، المصدر السابق، ص158.